

فلسطين الأصالة وفلسطين الوهم

القضية الجوهرية لا تكمن في كوننا (أو عدم كوننا) دولة كاملة العضوية في الأمم المتحدة، بل ألا يخدمنا الحصول على مثل هذه العضوية وكأنه جوهر وجودنا وخلصنا. الأمم المتحدة لم تكن في يوم من الأيام مصدر حياة أو كرامة شعب. السؤال الهام ولكن مغيب: ما هو إدراكنا لفلسطين؟ خوفي أن نلتهي ببناء فلسطين الوهم والتنمية والمواطنين (مثل بقية الشعوب) وننسى فلسطين الأصالة والحضارة والأهالي. فمئذ إنشاء مدارس أجنبية في المنطقة قبل 150 سنة والعملية التي لم تتوقف هي انتزاع مصادر القوة وعوامل البقاء لدينا (والمتمثلة بالنسيج الاجتماعي التعددي الحضاري في المجتمع) وتحويلها إلى رموز شكلية تحت ادعاء أن ذلك تمدن وتقدم؛ أي الاهتمام بالقصص وتشويه العلاقة بداخله وقطع العلاقة مع خارجه. تم ذلك من خلال إقناعنا بأن ما لدينا من ثقافة ولغة وطرق عيش ومأكل وملبس يجب التخلص منه واستبدال ذلك بحضارة تحكمها قيمتا السيطرة والفوز. لم يمر هذا دون محاولات لوقف عملية التخريب هذه، أذكر هنا اثنتان: الأولى مقاومة خليل السكاكيني للتعليم الغربي والذي عبر عنه أولاً في كتاب "الاحتذاء بحذاء الغير" ثم في المدرسة التي بناها عام 1909 تحت شعار "إعزاز التلميذ لا إذلاله" وجسد ذلك المبدأ برفضه استعمال علامات وجوائز وعقاب (إذ ما لاحظته هو أن المدارس الأجنبية كانت تربي الأطفال على احتلال حضارة محل أخرى وأن ما تفعله هو إذلال الطفل من خلال قياس المعرفة بواسطة امتحانات ومسخ قيمة الطفل برقم). أما المحاولة الثانية فكانت اللقاء الذي دعا إليه الفلاحون عام 1929 وانتقدوا فيه التعليم الإنكليزي في فلسطين لأنهم شعروا أنه يمزق العلاقات داخل العائلة ويمزق علاقة الصغار مع الأرض.

التحدي الرئيسي الذي نواجهه كفلسطينيين في هذا الوقت بالذات هو كيف نوقف عملية انتزاع فلسطين الأصالة والحضارة والأهالي من داخلنا واستبدالها بفلسطين الوهم والتنمية والمواطنين خارجنا؛ كيف نستعيد فلسطين الأصالة ذات أفق حضاري ينطلق من الغنى الموجود فيها ويشمل علاقات مع جيران تاريخيين ذوي حضارات غنية. فلسطين تقع في مركز أنسجة حضارية متعددة، ووسط موقع جغرافي وديني، ووسط الأمة العربية التي تضم عوالم متنوعة وهي بؤرة اهتمام شعوب كثيرة. لا توجد مدينة سوى القدس يصبو أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية الحج إليها. إهمال هذا الغنى لا يمكن تفسيره سوى أن حدود إدراكنا هي فلسطين الوهم.

الغزو الغربي للعالم هو غزو حضاري هدف إلى طمس وتدمير حضارات وإلغائها كطرق عيش وأنظمة معرفية، واحتلال حضارة أخرى محلها. لهذا بدأ الغزو بالمعرفة. باستثناء بعض المحاولات، لم تحصل أية مقاومة للاحتلال المعرفي المعيشي. نقاوم الاحتلال على المستوى السياسي والعسكري والثقافي ولكننا نحتضن الاحتلال المعرفي والاقتصادي. إهمال هذا الاحتلال كان السبب في عدم خروج شعوب كثيرة من موقع العبودية في علاقتها مع الغرب رغم كل أنواع الاستقلال التي حصلت عليها. من هنا، فإن صياغة الصراع وكأنه بين الحداثة والأصالة هو إلهاء عن الصراع الأهم بين الوهم والأصالة (الوهم بأن هناك مساراً أحادياً عالمياً للتقدم ومصدراً وحيداً للمعرفة مقابل العيش وفق تعددية حضارية غنية تعيش مما لديها). استعمال كلمة "حداثة" هدفه الإيحاء بأن هناك حضارات حديثة متطورة وحضارات تصر أن تبقى كما هي؛ أي بهدف احتقار الشعوب لحضاراتها والسعي لتقليد الغرب. النظر إلى الصراع على أنه بين الوهم والأصالة يحثنا على النظر إلى فلسطين ضمن أفق حضاري.

كان عام 1993 فاصلاً بين فلسطين الأصالة وفلسطين الوهم، فلسطين الحضارة وفلسطين التنمية، فلسطين الأهالي وفلسطين المواطنين. قبل ذلك العام، في فلسطين الأصالة والحضارة والأهالي، كان العالم يأتي إلينا ليتعلم بشكلٍ تبادلي ويتعامل معنا ضمن علاقة أفقية، لا فوقية ولا دونية. كان الناس من كل مكان يأتون ليتعرفوا على معانٍ للمقاومة ونمطٍ مختلف في العيش؛ ليتعرفوا علينا كمصدر معرفة وعمل جماعي إبداعي على عدة مستويات. بعد ذلك العام، في فلسطين الوهم والتنمية والمواطنين، تأتي المنظمات الدولية لتساعدنا من موقع استكبار ضمن علاقة تنطوي على احتقار؛ تأتي بشروط مهينة وتغرينا بفتاتٍ وتُرهبنا بقطعها عنا إذا لم نفعَل ما تأمرنا به. في فلسطين الأصالة كانت الكرامة أهم ما يميزنا؛ في فلسطين الوهم أصبحت المطالبة بالحقوق (من الظالم!) والاستجداء هو ما يميزنا. في فلسطين الأصالة كان الأمل مصدر حيويتنا؛ في فلسطين الوهم أصبحت التوقعات مصدر إحباطنا. في فلسطين الحضارة كانت العلاقة المقدسة هي التي بين الأهالي؛ في فلسطين الوهم العلاقة الرئيسية هي بين مواطنين وحكومة ومؤسسات. في فلسطين الحضارة لم يكن لنا صوت في الأمم المتحدة، لكن صوت فلسطين كان يدوي في أرجاء العالم.

الأهالي هم مثل البذور البلدية؛ بذور الخضرة البلدية تولد ذاتها منذ آلاف السنين دون مؤسسات؛ البذور التي تصنعها شركة مونسانتو غير قادرة على توليد ذاتها. فلسطين الأصالة تولد ذاتها منذ آلاف السنين؛ فلسطين الوهم لا تستطيع أن تعيش سنة واحدة إذا انقطع مصدر وجودها الخارجي. عندما ذهب أهالي القاهرة إلى ميدان التحرير، لم يكن في جعبتهم غير مصر الأصالة ذي الأفق الحضاري؛ أذهلوا العالم بل أذهلوا أنفسهم بالقوة العظمى الأزلية، والتي ربما تطمس لكن لا تلبث أن تعود.